بين يدي «مكاشفات»

بدأت فكرة «مكاشفات» تتبلور عندما تسنى لي عبر موقعي في صحيفة «البلاد» الاحتكاك برموز وأقطاب ثقافية شتى من التيارات الفكرية الموجودة بساحتنا السعودية. ولقد ألجمتني الدهشة الأولى وتملكتني الحيرة والصدمة عندما اكتشفت أن معظم من التقيت وحاورت لم يكونوا أبداً كما كنا نعتقد فيهم عبر الانطباعات المسبقة التي ترسخت في أذهاننا من خلال قراءات أولية لنتاجاتهم وطروحاتهم الفكرية، بل وأتجاسر على القول بأن بعضاً منها وجدته يفوقنا غيرة وحميّة لمرتكزات مجتمعنا التي ننطلق جميعاً منها، ما جذّر في نفسي بأن هوّة نفسية وقراءة خاطئة من كلا الفصيلين الرئيسين - على مستوى النخب - لبعضهما أديا إلى مصادمة حادة إبان الثمانينيات الميلادية وفي أثناء حرب الخليج الثانية..

لا شك بأن مصادرة الرأي التي قام بها بعض أدعياء الحرية الفكرية من مشرفي الصفحات الثقافية ببعض صحفنا المحلية - وباعتراف أساطينهم لاحقاً - وارتداءهم الخوذ والبساطير، وممارستهم لقمع فكري غير مبرر تجاه أي رأي مخالف لهم، أدى - كحتمية رياضية - إلى بعض التشنج لدى الطرف الآخر الذي ارتدى بدوره سوء الظن وتمنطق بالريبة وساط خصومه بالتصنيف. للأسف لم يدرك الجميع خطورة الاستمرار في هذه المعارك ومآلاتها، خصوصاً أولئك الذين كانت بيدهم منابر الصحافة والإعلام، عندما بدأنا نرى عبر شاشات الإنترنت بعض الصبية والمراهقين يروجون لفكر التكفير - ارتكازاً على شعورهم بالكبت والعداء والتهميش - ما جعلنا نلتفت إلى المجتمعات القريبة التي ابتليت بمثل هذا القمع الفكري، ونتأمل مآل ما

obeikandi.com

قام به غلاة العلمانيين والذين كانت بيدهم مفاتيح الإعلام من مصادرة لآراء خصومهم عبر رؤى سِمَتها الأحادية والتعصب، وليقودوا مجتمعاتهم إلى الولوغ في قضايا التكفير وإعلان الجهاد وغير ذلك من الشعارات التي تجد دوماً من يتلقفها خصوصاً إذا صدرت عن مرجعيات إيديولوجية. ولعل أوضح دليل لما ذكر أننا نرمق بحسرة الآن بعض تلك المجتمعات وهي تتلوى على سفافيد العنف، بينما التي استطاعت تشخيص الداء وأتاحت هامشاً من الحرية تجاوزت محنتها وانكفأ الفكر المتطرف إلى شراذم لا قيمة لها..

وكانت تجربة «مكاشفات» التي هدفت إلى الجمع بين الرموز والقيادات الفكرية المختلفة على أرضية من حوار حضاري ندل به، مفعم بروح الحب الأخوي الذي أوجبه الإسلام، وفي مناخ يسربله حسن الظن والنيَّة الصادقة للوصول إلى الحق إن شاء الله تعالى. اتكأت التجربة على إيراد كل المآخذ والتهم على فكر الضيف وبكل الصراحة الممكنة والمتاحة عبر قراءة عميقة لأطروحاته، واتصال مباشر مع معارضيه، وفسح المجال للجميع بالتعليق والرد. وحقق ذلك نجاحاً باهراً لم نتوقعه، وإقبالاً وثناء من شتَّى الأطياف الفكرية، فلقد رأى الكثيرون أننا عبر إتاحتنا الحوار والمنازلة الفكرية للرموز والقيادات نكون قد قطعنا الطريق أمام صبية لم ينضجوا بعد، وهم غالباً ما يسيئون تقدير الأمور عبر حماسهم العاطفي، وقطعنا الطريق أيضاً على رموز غير متخصصة في الشأن الفكري ومساربه، والذين ربما أساؤوا من حيث ظنوا أنهم أحسنوا. ومن جانب آخر نزعم أننا عبر «مكاشفات» كسرنا حاجزاً نفسياً بين تلكم الأقطاب المتحاورة، حاولنا من خلالها تجسير علاقة في إطار الأسرة الواحدة بين الأطراف المختلفة، تتبدد عبرها كثير من الأوهام والأحكام المسبقة، ويكون الاختلاف - الذي نعتقد بسنّيته الكونية الماضية بين البشر - داخل نسيجنا الاجتماعي حضارياً، وليتماسك ويزداد قوة، ولتتقارب ألوانه بشكل أكثر تآلفاً..

اخترنا في الجزء الأول من كتاب «مكاشفات» ثلاثة حوارات كانت الأكثر جدلاً، أوردناها حسب التسلسل الهجائي لأسماء ضيوفها، مبتدئين بالدكتور تركي الحمد الذي أكرمنا بلقاء صريح إلى أبعد درجات الصراحة، ولا أفشي سراً بأن الرجل يمتلك من الشجاعة والطموح والبحث عن الحق - كما ظهر لنا والله حسيبه - ما يجعلني أطالب الذين يختلفون معه أن يحاوروه بأدب الإسلام، ويناقشوه بكل العقلانية والهدوء، ويستمعوا إليه برحابة صدر وحسن ظن، وسيجدونه بإذن الله مخلصاً للحق إذا اقتنع به، وأيم الله، لقد تعلمت عبر تعامله وأخلاقياته الكثير جداً، ولعلني أسرد حداثة واحدة فقط لأدلل بها على سبب إعجابي بالرجل، ذلك أنني استرسلت معه في حوارنا الطويل، والذي احتدّ وعرّج إلى موضوعات حساسة مجتمعياً وفكرياً، وفي نيتي نشر ذلك كاملاً. وبعد أن انتهيت من تفريغ الحديث، أرسلت اللقاء للدكتور الحمد كي يعدّل أو يستدرك بعضاً من كلامه أو يصحح بعض عباراته. وأرسل لي، بعد انتهائه من تصويبات بسيطة، اللقاء كاملاً مرفقاً ورقة هذا بعض نصها: «لقد أوفيتُ معك يا أخ عبدالعزيز بوعدي، وها هي الإجابات بين يديك، ولكني أقدم لك نصيحة - وقد تعمّدت أن أقولها والأوراق كاملة بين يديك وليس قبل ذلك - بأن تتريث في نشر بعض الأسئلة الحساسة التي قد تغضب البعض وستتضرر أنت شخصياً، وأنا مشفق عليك، والأمر كله بيدك الآن، وأنت لك مطلق الحرية في أن تختار ما تريد فعله..». حقيقة أكبرت الرجل في نفسي، وأجللت له هذه الشجاعة، وحمدت له هذا الكرم والتعاطف، بالرغم من أن حواري معه تجاوز في بعض مراحله حدود اللباقة عندما سقت له بعض اتهامات خصومه التي لا تليق، وهل أبشع وأقسى من اتهامه بالعمالة السياسية؟ ولكن هكذا هم الكبار وهذه أخلاقياتهم..

ضيفي الثاني كان الشيخ الدكتور عوض القرني، وهنا كنت في مأزق حقيقي، فالموضوعية الصحافية وطبيعة «مكاشفات» تقتضي مني تقمُّص دور

الخصم وكيل التهم. والحرج ليس هنا بل في تلكم الطائفة من الأحبة التي لا تتفهم هذا الدور، وفعلاً نالني منهم بعد اللقاء من سوء الظن والخصومة ما نالني، بيد أن أعجب ما في ضيفي اتساع أفقه، ورؤيته الأبعد بالرغم من أن سمته ومظهره لا يشيان بذلك - ولا أدري سبب هذا الانطباع في ذهني الكليل - غير أنني أحمل له تقديراً وإعجاباً لا يوصفان، وأريدك - قارئي - بأنك تفاجأ إذا ما جلست معه وسبرت غوره عن عمق فكر يحمله، وعن إلمام بقضايا التراث والفكر المعاصر في أن يمتلكه، والأعجب مدى قبوله للرأي الآخر واستعداده للحوار مع مخالفيه لأبعد درجة، ما يجعلك تشك في أنك أمام عوض القرني صاحب الكتاب الزلزلة «الحداثة في ميزان الإسلام». وأزعم أن عقداً ونيفاً من السنوات كفيلة بأن تتبدى فيها للإنسان آفاق جديدة وآماد أوسع ما يجعله يطور كثيراً من مفاهيمه، ويعيد النظر في طرائق تعامله مع الآخر. وقّت لي الشيخ موعداً للقاء بعد لأي وعناء، وعندما ذكّرته به كان في أبها مسقط رأسه لظرف عمل طارئ ولم يخبرني، ولأفاجأ أنه آيب إلى المطار وأنه أتى وفاء لوعده فقط، ما جعلني أتمتم في نفسي هذه أخلاق العلماء، وأستدني إلى الذاكرة قصصاً عن سلفنا الصالح رحمهم الله..

أما أبو الشيماء الأستاذ محمد سعيد طيب صاحب الثلوثية أشهر صالون فكري وسياسي في ساحتنا المحلية، فكان ضيفي الثالث، وأنا أحمل له من الذكريات الجميلة الكثير، حيث لم أتعب تعبي في إعداد أسئلة هذا الرجل لظروف شتى، ولكن أكثر ما علق في نفسي عنه صدقه وغيرته على وطنه. ومن الطرائف التي أفشيها لأول مرة - حتى أبا الشيماء لا يعرفها -، ذلك أنني عندما عدت لتفريغ اللقاء اكتشفت أنني وقعت فيما يقع فيه المبتدئون أمثالي، لأجد وجهاً كاملاً من الشريط لم يسجل الحديث.

وأسقط في يدي وأنا أمضيت في حواري معه ما يقارب الأربع ساعات المتصلة فلا أدري كيف أعتذر أو ماذا أصنع أو بأي وجه ألقى الرجل. فلم يك

بدّ من أن أحتال وأطلب منه بعض الإيضاحات لأسئلة جديدة تولدت من إجاباته، ما جعله يتعجب ويوافق بكل دماثة خلق ورأيتها فرصة سانحة لأعيد طرح الأسئلة التي لم تسجَّل، وكانت من أقوى وأجمل المكاشفات التي أعتز شخصياً بها وبصاحبها..

بقي أن أختم بشكر خاص إلى أستاذي الكبير رئيس تحرير صحيفة «البلاد» سعادة الدكتور عبدالقادر طاش الذي لولا جرأته الأدبية وفسحه لهذه المكاشفات بالنشر على ما فيها من بعض التجاوزات في تناول قضايانا المجتمعية والفكرية لما ظهرت. وامتنان آخر وشعور بالفضل الممتد لأستاذي الخلوق بكر إبراهيم بصفر الذي علَّمني ألف باء الصحافة، وتوسّم في شخصي بعض الموهبة الصحافية؛ علَّني بهذا الشكر أردّ له بعضاً من واجب تلميذ تجاه معلمه. وشكر متصل لكل الإخوة الذين أفادوني وساعدوني وشجعوني عبر إمدادي بالمعلومات الخاصة أو إعداد الأسئلة أو التعليق على المكاشفات، غير ناس أولئك الأحبة الذي كانوا وراء نشر هذا الكتاب وفسحه إعجاباً ومروءة منهم، فلهم مني الشكر الجزيل والامتنان الأعمق.

عبدالعزيز محمد قاسم

٢٥ / ٩ / ١٤٢٢هـ